من صديق إلى صديقين

للدكتور أحمد فريد رفاعي

مدير قلم المطبوعات

صدقني أيها الصديق ، الكبير في أدبه ، الكبير في خلقه ، الكبير في أثره ، أستاذنا الزيات ، أنني معجب بما تفضلتم بنشره في مجلتنا الشرقية المحبوبة « الرسالة » مما دبجته يراعة الصديق الزميل ، البحاثة الدءوب ، الكاتب العالم الوديع ، الأديب عبد الوهاب عزام ، خاصاً بما لاحظه — مشكوراً مني ومن المستفيدين بنقده وعلمه ، مأجوراً من ربي وربه — على ما فات عليناً جماعة « دار المأمون » أولا وقبل كل شيء ، ومن عاونتنا في الطبع والاخراج من وراقين وطابعين آخراً

ومهما يكن من إمعاني بصدق قول يحيى بن خالد : « لا يزال الرجل في فسحة من عقله ما لم يقل شعراً أو يصنف كتاباً » بيد أني ارتحت الارتياح كله إلى أن فاضلاً أديباً كأخي الاستاذ عبد الوهاب عزام تجشم المتاعب والصعاب ، وأفنى الليل والصحة والجهد ، في القراءة والمقابلة ، والمطالعة والمقارنة ، والتصحيح والاستقراء ، في سبيل إقامة الأود ، وإحقاق الحق ؛ فله الحمد والثناء على ذلك ، ما أبلى وأجاد ، وبحث وأفاد . . ولست بقائل له إنني ألحقت بالجزء الثالث ما يفيد ويرشد ، وفي الرابع ما ينصف ويحمد . ولست بمتألم لما كان من مبادرته بما تداركناه ، لأن الكرم العلمي ، والسخاء الادبي لا يعدوان صنيعه . بيد أني — وهو الأستاذ الحجة — ناقل له هنا كلمات متواضعة أرجح أن علمه الوفير سيسيغها ، وعطفه الفسيح سيسعها ، وأدبه الجم سيبررها

« وكم [1] كان يحلو لي أن أتحدث طويلاً عن النقد وحقيقته ، علماً وفناً ، وتاريخاً وتطوراً ، وما له من أثر عميق يعتد به في توجيه نهضتنا التجديدية إلى الانتاج والبقاء ، والتشييد وحسن الأداء ، والتقدم والنماء ؛ وكم كان يحلو لي أن أستفيض معك في القول في هذا الباب ، وأميط لك اللثام عما لنصفة النقدة من سداد تزجية ، وحكيم توجيه ، وحسن إبانة ، وفضل على الصناعة ، ومن في عنق التأليف ، ورواج للكتب والتصنيف ، وإصابة للنصاحة ، وإعانة على الفصاحة ؛ وكم كان يحلو لي أن أزاملك في جولة في تلخيص كتاب « سالسبوري » في علم النقد ، وأن أرافقك في سياحة في أسفار « ماكولي » وما كان له من إرشاد إلى الحقائق ، في شكر للناشر ، وثناء على المؤلف ، في غير افتئات ولا إعنات ، وفي نأي عن الحقد والشحناء ، والجدل والمراء ، والاقذاع والهجاء . كم كان يحلو لي ذلك كله وما في سلكه ونظامه ، لو لا أن النية منصرفة ، إذا مد الله في سني العمر ، وأطال في حبل الحياة ، إلى أن أفرد لك كتاباً في هذا ، وأن أشرح لك فيه ما له صلات بالأدب والعالم ، وأعرج لك فيه على مضار الخصومات والاتهام بالزندقة ، والتشكيك في العقيدة ، لأن العلم يجب أن يكون للحق خالصاً ، والأدب يجب أن يُحاق للفن محضاً ، والفن يجب أن يتجه للجمال صرفا ، والجمال يجب تحليته لرفاهة الحس ، ومتعة العين ، وصقل الذوق ، مستساغاً حلواً »

« وهذه فصول لعمرك تتطلب الدرس والتقرّي ، والفرْي والتقصي ؛ ولكن قصارى ما تبتغيه لك هنا ، التوجيه إليك بالنصيحة ، أن تجعل الدين السمح بينك وبين ربك ، وأن تتخذ من هديه تهذيب نفسك ، وتقويم عوجك ، وتغذية روحك ، وأن تتنكب ما في وسمك لها من زالق الفتن ، واغترارات التردي ، ومجاهل التدسي في الخصومات التي تقوم بين العلم والدين ، وبين القديم والحديث ، وبين الحق والأضاليل ، وبين الموعظة والأحبولة ، وبين الوجدان والسخيمة ، وبين السليمة والسقيمة ، وبين الصدق والمين ، وبين القصد والسرف ، وبين الافتيات والارشاد ، وبين الأعوجاج والسداد ، وبين الحلكة والنور ، وبين الافادة والغرور ، وبين الرقة واللطف ، والشدة والعنف ، وبين التعليم والتجريح ، وبين الابهام والتوضيح ، وبين الملتوى والصحيح ، وبين اللفظ والمبنى ، وبين العبارة والمعنى ، وبين الاجحاف والانصاف ، وبين الاصلاح والاتلاف ، وبين المعدلة والتحيف ، وبين الافادة والتعسف ، وبين الاجادة والتحرف ، وبين العقل والشهوة ، وبين الزبد والرغوة ، وبين الهدى والتدني ، وبين الجني والتجني ، وبين

(١) ص ٢١١ بكتاب التعليق من مكتبة القراءة والثقافة الأدبية للجيب

الشفاء والتشفي ، وبين الورع والغاية ، وبين البداية والنهاية . »

* * *

« ولكن ذلك كله لا يحول بيننا وبين أن نجتزىء لك القول ، بأن النقد هو الرشد البرىء ، والمعلم المؤدب ، والظهير المعين ، الذى يقدر متاعبك فى التأليف ، ويشيد بأوجه إحسانك ، ويجلى لك مواطن الضعف ، فى أدب ولباقة ، مع تحليل الموضوع ، شخصاً كان أو عصراً ، إلى ما له من عناصر ومقومات ، وأثر بيئة ووسط ، ووراثة ودم ، ومنبت ومنجم ، ومزاج بحيزة ، وطبيعة إقليم ، إلى ما يلابس عصرك من علوم وفنون ، وحقائق وبداية ، ونظريات وأسس ، ومدارس تفكير ، وقواعد جدل ، وأصول نقد ، ومعايير منطق ، ومقاييس مقارنة ، وأوجه موازنة ، وتناسب مقدمات ، واستخلاص نتائج ، وفهم لطريقــة « ديكارت » ، وتعرف لمناهج « كوليدج » ، واستيعاب لتاريخ « سانت بوف » ، وانتهال من مقولات « ما كولى » ، ووقفة على أطلال مذهب « بوالو » ، فى استشراف إلى ناحيــة الجمال والخير من كل شىء ، ودرس للطبيعة المركبــة فى كل شىء ، لذاتها لا لأشخاصها ، ووصف للصفات الانسانيــة العامة ، والفضائل البشرية العامة ، والطبائع الاجتماعية العامة ، كمدرسة القرن التاسع عشر التى كان فى طليعة كتابها « كورنى » « وموليير» و« راسين » وأترابهم وأشباههم ، وانتقال إلى أصحاب المذهب الايجابى ، وهم « أوجست كنت » و« أرنست رينان » ورائدهم « تين » الذين يتوخون البرهنة العلمية فى كل شىء ، ويرجعون مقومات الرجل إلى الجنس والبيئة والطبيعة والزمن وما إلى ذلك ، مع إلمامنا بمذهب « فرديناند برونتير » ، فى التدرج والانتقال ، المبنى على فلسـفة « دارون » فى النشوء والارتقاء ، من تقسيم الآداب العامة ، من وجدانية واجتماعية ، وشعرية ونثرية ، إلى وحدات وفصائل ، مما ليس هذا موضع الاسهاب فيه ، والشرح له ، مع أخـــذنا بأساليب العرب ، وتذوق لمعنى الجمال ، فى صفاء روح ، ومضاء عزيمة ، ونفس طُلَعَة ، ورفاهة إحساس ، للموازنة والاقامة ، واضطلاع بقدسية العلم ، وأمانة البحث ، وحرمة المنقول ، واستكناه لمدى الجدل المترفق الوئيــد ، وتحرر من وجهة التعنت العتيد ، ونزول على سياسة التسهيل والتمهيد ، والتأسيس والتشييد ، وأن تكون الروح الحاكمة على سلطان النقد الحافزة إلى الارتشاد له والتبسط فيه الأخذ بضبع المؤلف لا إهدار جهده ، والمضى فى الاعانة له لا التقحم لانتقاص أثره ، والتقدم إلى شـد أزره ، لا التهانف بذكره ، وإجلال صنيعه ، فى ذوب نفسه ، واعتصار ذهنه ، وسهر ليله ، ومتاعب تحصيله ، ودءوب إكبابه ، ومضنى إمضائه ، وعناء كتابه ، بديلاً من سياسة السخرية والتكذيب ، والهدم والتخريب ، واللوم والتثريب ، فى غير هدى ولا تعقيب »

* * *

أما بعد : فلست يا سيدى الجليل بمنتحل كتاب ياقوت ، إلى شخصى الضعيف ، لا سيما وقد أفردت لتاريخه ربع الجزء الأول . وأود أن تعلم يا سيدى ، غير معلم ، فى غير غمز ولا لمز ، ولا تعليق ولا تعقيب ، أن حكمة إصدارنا لما نحاول إصداره من مؤلفات السلف الصالح ، « من[1] رسمية وشبيهة بالرسمية ؛ فالرسمية ، ونعنى بها كتب الأدب المجمع عليها ، وهى البيان والتبيين ، والعقد الفريد ، والكامل ، والأمالى ؛ والشبيهة بالرسمية أمثال ابن منظور ، وابن قتيبة ، وابن بسام ، وابن ظفر ، وأبى حيان ، والزمخشرى ، والجاحظ فى حيوانه ، وما إليها ، وكتب الطبقات والتراجم ، أمثال معجم الأدباء لياقوت ، وتاريخ الاسلام للذهبى ، ووفيات الأعيـان لابن خلـكان ، ومن على شاكلتهم — أود أن تعلم يا سيدى أن حكمة إصدارنا لهذه المؤلفات هو أنا نرى فى إحيـاء هذه الـكتب ، وبعثها إلى النشور والظهور ، اللبنة الأولى فى بناء صرح الموسوعة العربية ، التى يحتاج إليها الناطقون بالضاد ، والتمهيد الذى لا محيص عنه ، إذا ما رغبنا رغبة عملية حقة فى الاتجاه العلمى والعملى معا ، فى وضع دائرة معارف عربية شرقيــة ، مستندة على أصول تاريخية صحيحة ، وقائمة على أسس عملية حقة »

* * *

ثم أود أن تعلم يا سيدى الصديق الـكريم أن وزارة معارفنا قد أحسنت صنعاً وأصلحت أمراً ، حينما أخـذت على عاتقها إنشار الأدب ، وإحيـاء لغة العرب ، وبعث تواليف السلف الصالح ، والأخذ بناصرنا فى إصدار أمهات كتبنا الأدبيــة ، ومظاننا التاريخية ، ومراجعنا اللغوية . ولتعلم — غفر الله لى

(١) ص ١٢ كتاب العليق

ولك — أنها قررت أن تفتح الباب على مصراعيه لكل أديب عالم، أو أستاذ مثقف، أو ناشر همام، يتقدم لها برغبته فى المعونة برجالاتها وأئمتها لمراجعة ما يصدر، والاشراف على ما يطبع، رغبة فى خدمة الثقافة، وحرصاً على الأمانة العلمية المرجوة. ثم أود أن تعلم يا سيدى أن تسعة أعشار ما يطبع الآن، وما يروج فى السوق، ليس من آثارك الناقعة، ولا من منتجات من هم فى مكانتك وثقافتك، بل هو مع الأسف الشديد من الروايات المبتذلة، وقصص البوليسيات والاجراميات، وأن المصلحة كل المصلحة فى محاولتنا جميعاً تغيير الاتجاه، وخلق الذوق الأدبى الجديد

ثم أود أن تعلم — غير معلم طبعاً — أيها الأستاذ الجليل أن ضبط الأعلام، ومراجعة الأعلام، وشرح المبهم، والتذييل على ما فات المؤلف والناشر — كل هذا ليس بالسهل الميسور، ولا بالعمل الضئيل، الخليق بالسخرية والتهافت. وحاشاك أن تجنح — وأنت المؤدب خلقاً ولفظاً، ومعنى ومبنى — إلى ما لم يعهد فيك طوال حياتك. وأود أن تعلم أيها الصديق الأديب أننا كلنا، فى أعمالنا الأدبية والثقافية والعلمية، لم ندرج بعد من مهدنا، وأننا فى بداية البداية، وأن لغتنا العربية بحاجة إلى الضبط الكامل، والشكل الكامل، والأيد الكامل، والتآزر الكامل، وأننى أومن بحاجتى إلى توالى نصحك، ومطرد إرشادك، ومتتابع تعقيبك، ومحتاج حقاً إلى علمك وأدبك.

وأود أن تعلم يا سيدى أنك ستأسف كثيراً — وأنا العليم برجاحة عقلك، وسجاحة خلقك، ومتانة مباءتك، ودماثة سجاياك — حينما ترجع إلى الجزءين الثالث والرابع، وترى فيهما أن حضرة أستاذنا سوياً الشيخ عبد الخالق عمر، أستاذ اللغة العربية الأول بدار العلوم لم يأل جهداً فى إصلاح الكتاب وتدارك ما فات على الأستاذ المستشرق د. س. مرجليوث، فى غير موضع، يستحق التقدير والشكر، والثناء وحسن الأجر

وأود أن يعلم الصديق الكريم — فى غير منّ ولا تجمل، وفى غير زهو ولا اغترار — أننى ارتحت أيما ارتياح لتجنيك مبطلاً، أو هديك مرشداً، أو تحيفك متعنتا، أو إرشادك محقاً، فى ترجيح نبالة القصد، وحسن الطوية، على ما عداهما علم الله. ارتحت أيما ارتياح — مهما كان الحافز والدافع، والهادى — لما كان، لأننى أسأت التصرف حقاً، ولأننى أخطأت محجة السبيل صدقاً، ولأنه لا معنى لأن يحتمل مثلى، ومن فى صحتى ومتاعبى، ومن خرج أمس القريب من محنة المعاش، وإضاقة الرزق، وتوالى النكبات والأرزاء — لا معنى لأن يحتمل مثلى مسئوليات كبار، مخيفة ومفزعة، فى التصدى لما تصدره الآن « دار المأمون »، التى تكلفنى هى والراجع الشمسية ومنسوخاتها ومصادرها ما لا يقل عن مائة وخمسين جنيهاً شهرياً؛ لو علم الصديق الكريم النفس والخلق مصدرها وطريقة جمعها، لتردد فى أن يركب رأس الشيطان، ولتريث حتى يطلع على استدراكاتنا، ولكان نعم المشجع والظهير، ونعم العون والنصير

وأود أن يعلم الصديق الكريم — غفر الله لنا سوياً، وهو هو النبيل الخلق، الطاهر الذيل، العف الوجدان — أننا معشر الكتاب نعانى الأمرين من حسد الحاسدين، وظلم المبطلين، وشظايا الراجمين. ولو كان الصديق الكريم — رحمه الله، وهو المتصل بالدكتور طه حسين بك زعيم الأدب ونصيره، ومن خاصة الأستاذ أحمد أمين وهو عميد الأخلاقيين، ومن كتاب الرسالة ولها فى الأدب وبنائه رسالات خالدات ليس إلى انتقاصها من سبيل — لو كان الصديق الجليل أنعم النظر لآثر أن يترك منهجه الجديد فى تقدمته لنقده، لمن هو دونه بمراحل، خلقاً وعلماً، وثقافة وأدباً؛ ثم لوازن — بفرض عدم مطالعته لاستدراكاتنا فى الجزءين الثالث والرابع — بين معجم ياقوت لمرجليوث ومعجم ياقوت لدار المأمون، ثم لم يبخل بالارشاد عن طريق الصحف إن كان محباً للاعلان، أو عن طريق الصداقة إن جنح إلى الاحسان، فى غير انتقاص لفضله ولا نكران

وأود أن يعلم الصديق الكريم — وأقول هذا من باب الاكبار وأنت خير أهله، ومن باب التقدير وأنت خير موضع له — أننى كنت أنتظر منك ومن زمرتك الصالحة الجليلة أن تكونوا أكثر عوناً لى من الأستاذ مرجليوث؛ فلقد كتب إلىّ — فيما بينى وبينه وبين ربى وربه — ليرشدنى إلى أن نسخة شمسية لقسم ناقص من الكتاب لدى المستشرق يهودا، وأن آخر فى فلسطين لديه كذا، وأن نسخة مكتبة جلالة الشاه فيها كذا، وهو ليس بعربى، وإن كان للعربية محبا ولها

نصيراً ؛ وأنت يا سيدى — الكريم البيت ، الكريم الخلق ، الكريم الماضى والحاضر — تملك معاول هدم ، ومقولات إقذاع ، وتمهيدات تهكم ! ويا ليتك أتيت بجديد ، بل يا ليتك لم يفتك ما استدركناه ! والله لا أحل عليك لأنك شخص ، ولكنه الاكبار لشخصك ، والاكبار لمروءتك ، والاكبار لعبريتك ، والاكبار لنصفتك العلمية ، ومكانتك الأدبية

ثم أود أن تعلم أيها الصديق الكريم ، والزميل القديم ، أنني — مع اكبارى لكل نقد ، ورضوخى لكل هدى ، وإذعانى لكل ارشاد ، وخضوعى لحجة الصواب — كنت أؤمل منك كثيراً ، وكنت أؤمل من (الرسالة) كثيراً ، وكنت أؤمل من علماء العربية كثيراً ، وكثيراً جداً ؛ وليس بعاب ولا تقيصة أن أفتح لكم قلبي جيداً ، لأقول إن مشروع الأحياء أكثر مما أطيق ، وأكثر مما أحتمل ، وإنه بحاجة ماسة إلى عونكم الأدبى والمادى ؛ أما الأدبى فبغير تلك السبيل الشائكة القذعة المريرة ؛ لا سيما وأنتم أعلم منى ، وأدرى بطلاسم النساخ ومعميات الكتاب ، وأخطاء الأجيال ، ومجاهل اللغة ، وفياق الأحاجى ؛ وأما المادى ، فبأن تتقدموا بالدعاية القوية الحارة المؤمنة ، بأن يساهم السراة والأغنياء فى أكبر عمل ثقافى أدبى ، يخدم لغة القرآن ، ويرفع سمعة مصر إلى السماكين ، ويحتفظ بزعامتها على الشرق وعلى الناطقين بالضاد

ثم أود أن يعلم سيدى الصديق الكريم — غير معلم طبعاً — أنني ممن لا يحفل كثيراً بمادحه أو ذامه ، وأن مرانى فى هذا الباب كون منى رجلاً لا يخشى إلا الله ، ولا يعمل إلا بوازع يخشى الله دون سواه ، وأن مدح اليوم قد يكون ذم الغد ، لأن معايير الأشياء تختلف بالبيئة ، والظرف ، والمكان ، والزمان . وما زلت أذكر ما تذكره جيداً من محاضرة أستاذنا المرحوم الشيخ محمد المهدى ، حينما حدثنا عن الصاحب بن عباد ، وما عزاه إليه صاحب الامتاع ، فى معرض الذم والهجاء ، من ميله إلى أن يقال عنه[1] : « أصاب سيدنا ، وصدق مولانا ، — ولله دره — ما رأينا مثله ، ممن ابن عبد كان مضافاً إليه ؟ ومن ابن ثوابة نقيسه عليه ؟ ومن ابراهيم بن العباس الصولى ؟ ومن صريع الغوانى ؟ ومن أشجع السلمى ؟ إذا سلكا طريقهما ، قد استدرك مولانا على الخليل فى العروض ، وعلى أبى عمرو بن العلاء فى اللغة ، وعلى أبى يوسف فى القضاء ، وعلى الاسكافى فى الموازنة ، وعلى ابن نوبخت فى الآراء والديانات ، وعلى ابن مجاهد فى القراءات ، وعلى ابن جرير فى التفسير ، وعلى أرسطاطاليس فى المنطق ، وعلى الكندى فى الجدل ، وعلى ابن سيرين فى العبارة ، وعلى أبى العيناء فى البديهة ، وعلى ابن أبى خالد فى الخط ، وعلى الجاحظ فى الحيوان ، وعلى سهل بن هرون فى الفقر ، وعلى يوحنا فى الطب ، وعلى ابن يزيد فى الفردوس ، وعلى عيسى بن كعب فى الرواية ، وعلى الواقدى فى الحفظ ، وعلى النجار فى البدل ، وعلى ابن ثوابة فى الثقفية ، وعلى السرى السقطى فى الخطرات والوساوس ، وعلى مزيد فى النوادر ، وعلى أبى الحسن العروضى فى استخراج المعمى ، وعلى بنى برمك فى الجود ، وعلى ذى الرياستين فى التدبير ، وعلى سطيح فى الكهانة ، وعلى أبى الحياة خالد بن سنان فى دعواه . » وما عزاه إليه آخر فى معرض المديح والثناء ، فى باب مكارم الأخلاق[1] : « إنه استدعى يوماً شراباً من شراب السكر ، فجيء بقدح منه ، فلما أراد شربه قال له بعض خواصه : لا تشربه فانه مسموم . فقال له : وما الشاهد على صحة ذلك ؟ قال : بأن تجربه على من أعطاكه . قال لا أستجيز ذلك ولا أستحله . قال فجربه على دجاجة . قال : إن التمثيل بالحيوان لا يجوز . وأمر بصب ما فى القدح ، وقال للغلام : انصرف عنى ، ولا تدخل دارى بعدها ، وأقر رزقه عليه . وقال : لا تدفع اليقين بالشك ؛ والعقوبة بقطع الرزق نذالة » . فلعلك ترى ما أراه من أن للكاتب الواحد أحزاباً لامتداحه ، وأخرى لاستهجانه والزراية عليه ؛ وأن وجهات النظر تختلف ، بل معايير الحقائق تتباين على قدر غلبة النسبية فيها . ولعلك ذاكر قصة العميان السبعة مع فيلهم الموصوف ؛ ولله فى خلقه شؤون

وأخيراً أود أن تعلم ياسيدى أننى شاكر لك حقا كل فضل فى إصلاح خطئنا فى المعجم وفيما أصدره ، لأننى أنشد الخدمة الحقة لوطنى ودينى ولغتى

والسلام عليكما ورحمة الله وبركاته

أحمد ضيف رفاعى

(١) ص ١٨٥ الجزء الثالث من معجم الأدباء

(١) ص ١٨٥ الجزء السادس من معجم الأدباء